تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخبرا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها وهما آدم وحواء وجعلهم شعوبا وهي أعم من القبائل وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك وقيل : المراد بالشعوب بطون العجم وبالقبائل بطون العرب كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل وقد لخصت هذه في مقدمة مفردة جمعتها من كتاب الإنباه لأبي عمر بن عبد البر ومن كتاب (القصد والأمم في معرفة أنساب العرب والعجم) فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية وهي طاعة ا تعالى ومتابعة رسوله صلى ا عليه وسلّم ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضا منبها على تساويهم في البشرية { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا } أي ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته وقال مجاهد في قوله D { لتعارفوا } كما يقال فلان بن فلان من كذا وكذا أي قبيلة كذا وكذا وقال سفيان الثوري : كانت حمير ينتسبون إلى مخاليفها وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها وقد قال أبو عيسى الترمذي : حدثنا أحمد بن محمد حدثنا عبد ا بن المبارك عن عبد الملك بن عيسى الثقفي عن يزيد مولى المنبعث عن أبي هريرة Bه عن النبي صلى ا عليه وسلّم قال : [تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر] ثم قال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقوله تعالى : { إن أكرمكم عند ا أتقاكم } أي إنما تتفاضلون عند ا تعالى بالتقوى لا بالأحساب وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال البخاري : حدثنا محمد بن سلام حدثنا عبدة عن عبيد ا عن سعيد بن أبي سعيد Bه عن أبي هريرة قال : سئل رسول ا صلى ا عليه وسلّم أي الناس أكرم ؟ قال : [أكرمهم عند ا أتقاهم] قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : [فأكرم الناس يوسف نبي ا ابن نبي ا ابن نبي ا ابن خليل ا] قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : [فعن معادن العرب تسألوني] ؟ قالوا : نعم قال : [فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا] وقد رواه البخاري في غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان ورواه النسائي في التفسير من حديث عبيد ا وهو ابن عمر العمري به .

(حديث آخر) قال مسلم C : حدثنا عمرو الناقد حدثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة Bه قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [إن ا لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم] ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان عن كثير بن هشام به .

(حديث آخر) وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن أبي هلال عن بكر عن أبي ذر Bه قال : إن النبي صلى ا عليه وسلّم قال له : [انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى ا] تفرد به أحمد رحمه .

(حديث آخر) وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا أبو عبيدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكري حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة حدثنا عبيد بن حنين الطائي سمعت محمد بن حبيب بن خراش العصري يحدث عن أبيه Bه أنه سمع رسول ا صلى ا عليه وسلّم يقول : [المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى] .

(حديث آخر) قال أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا أحمد بن يحيى الكوفي حدثنا الحسن بن الحسين حدثنا قيس يعني ابن الربيع عن شبيب بن غرقدة عن المستظل بن حصين عن حذيفة Bه قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على ا تعالى من الجعلان] ثم قال لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه .

(حديث آخر) قال ابن أبي حاتم : حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا أسد بن موسى حدثنا يحيى بن زكريا القطان حدثنا موسى بن عبيدة عن عبد ا بن دينار عن ابن عمر Bهما قال : طاف رسول ا صلى ا عليه وسلّم يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده فما وجد لها مناخا في المسجد حتى نزل صلى ا عليه وسلّم على أيدي الرجال فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت ثم إن رسول ا صلى ا عليه وسلّم خطبهم على راحلته فحمد ا تعالى وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : [يا أيها الناس إن ا تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها فالناس رجلان : رجل بر تقي كريم على ا تعالى ورجل فاجر شقي هين على ا تعالى إن ا D يقول : { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند ا أتقاكم إن ا عليم خبير } ـ ثم قال صلى ا عليه وسلّم ـ أقول قولي هذا وأستغفر ا لي ولكم] هكذا رواه عبد بن حميد عن أبي عاصم الضحاك عن مخلد عن موسى بن عبيدة به .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر Bهما قال إن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال : [إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد كلكم بنو آدم طف الصاع لم يملؤوه ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى وكفى بالرجل أن يكون بذيا بخيلا فاحشا] وقد رواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن ابن لهيعة به ولفظه [الناس لادم وحواء طف الصاع لم يملؤوه إن ا لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة إن أكرمكم عند ا أتقاكم] وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عبد الملك حدثنا شريك عن سماك عن عبد ا بن عميرة زوج درة بنت أبي لهب عن ذرة بنت أبي لهب Bها قالت : قام رجل إلى النبي صلى ا عليه وسلّم وهو على المنبر فقال : يا رسول ا أي الناس خير ؟ قال A : [خير الناس أقرأهم وأتقاهم D وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم] .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو الأسود عن القاسم بن محمد عن عائشة Bها قالت : ما أعجب رسول ا A شيء من الدنيا ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تقى تفرد به أحمد .

وقوله تعالى : { إن ا عليم خبير } أي عليم بكم خبير بأموركم فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ويفضل من يشاء على من يشاء وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله وقد استدل بهذه الاية الكريمة وهذه الاحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط ولا يشترط سوى الدين لقوله تعالى : { إن أكرمكم عند ا أتقاكم } وذهب الاخرون إلى أدلة مذكورة في كتب الفقه وقد ذكرنا طرفا من ذلك في (كتاب الأحكام) و الحمد والمنة وقد روى الطبراني عن عبد الرحمن أنه سمع رجلا من بني هاشم يقول : أنا أولى الناس برسول ا A فقال غيره : أنا أولى به منك ولي منه نسبة